صورة المرأة في ألف ليلة وليلة

*عبد الله محمد الخلف / باحث في اللغة العربية وآدابها / كلية التربية - جامعة الجزيرة-السودان

** د. إبراهيم صالح إدريس أبو بكر / دكتور في اللغة العربية / كلية التربية - جامعة الجزيرة-السودان

الملخص

يحاول هذا البحث إجراء مقاربة نقدية لحكايات ألف ليلة وليلة، متتبعاً تجليات ظهور المرأة ودورها في الليالي، وما تميزت به من صفات في ضوء معطيات المنهج التكاملي ، من خلال وصف أدوار المرأة وظهورها في الليالي العربية الشهيرة، وتحليل دواعي تلك التجليات وانعكاساتها على أحداث الحكايات وعلى نمو الشخصيات وتقلباتها وتطور الصراع الدرامي وآليات القصّ الشعبي البنائية، واستفاد البحث من معطيات مناهج التحليل النفسي في تتبّع تأثير دور المرأة في الليالي على الشخصيات الرئيسة كشهريار وعلي الزيبق وغيرها، والإفصاح عن رمزية بعض أدوار المرأة واحتلالها مكانة محورية ومهمة في بناء الليالي بشكل عام، وخلص البحث إلى جملة من النتائج منها أن المرأة أبت أن تكون تابعاً للرجل في كل شيء، وأن الليالي رسمت صورة أخرى للمرأة من الممكن ربطها بصورة المرأة في العصور الوسطى، حتى الخيانة عندما وردت في الليالي لم تكن نتيجةً لضعف المرأة أمام شهواتها، لكنها في الغالب كانت تعبيراً عن تمرد ضد الرجل السيد أو المتسلّط، ومحاولة للتغلب عليه في أكثر القضايا حساسية وإحراجاً للرجل ، فكسرت بذلك امرأة الليالي الصورة السلبية المرسومة للمرأة وقدمت بدلاً منها صورة حيوية مفعمة بالقوة والقدرة لدى نساء الليالي.

Summary

This research attempts to make a critical approach for the stories of "The Arabian Nights", following the manifestations of the appearance of the woman and her role in "The Arabian Nights", and her characteristics in the integrated approach data, by describing the roles of the woman and her appearance in the famous Arab Nights, and analyzing the reasons of these manifestations and their implications on the events of the stories and the growth of the characters and their changes and the evolution of the drama conflict and the mechanisms of the popular constructive cutting. The research makes benefit of the psychological analysis data in tracking the impact of the woman's role of women in The Arabian Nights on the main characters as Shahraiar, Ali al-Zibq and others, and revealing of the women's role symbolism and occupying a main place in building the Arabian Nights in general. The research summarized a number of results, including that, the woman refused to be followed by men in everything. The Arabian Nights portrayed another image of the woman and this image could be related to the image of the woman in the Middle Ages. Even when the betrayal was mentioned in the Arabian Nights, it was not because of woman's weakness in front of her desires, but it was as an expression of the rebellion against the authoritarian man and trying to beat him in the most sensitive and embarrassing issues. Thus, the Arabian Nights' woman broke the negative image which was known about her and instead of that she gave a vivid image full of strength and power in "The Arabian Nights'" woman.

المقدمة:

نحاول في هذه البحث تسليط الضوء على جانب من جوانب الإبداع الأدبي العربي وهو (ألف ليلة وليلة) التي لا يخفى على أحد من أهل الأدب والعلم المكانة العظيمة التي تشغلها ألف ليلة وليلة في الأدب على مستوى العالم ككل، ولا ينكر فضلها وسمو مرتبتها إلا جاهل أو متحامل، ولك يتأتى للبحث النفاذ إلى غايته المرجوة فقد اخترنا من عوالم الليالي صورة المرأة في ألف ليلة، وأهم صفاتها السلبية والإيجابية والتي كان منها الخيانة والغواية والاحتيال والشطارة والحكمة والعلم والدهاء والبداهة والذكاء محاولين تبيان مواضع الإبداع الفني لليالي وخصوصية ألف ليلة في بناء موضوعاتها، ونسأل الله تعالى أن يوفقنا إلى سداد الرأي، وخير العمل. فقد امتاز التراث النثري العربي الكتابي والشفاهي على حد سواء بامتلاكه الأسس الكبيرة للفن العالمي، وكما قال أبو حيان التوحيدي فإن: ((النثر أصل الكلام والنظم فرعه))(١)، ولعل ما وصل إلينا من ذلك التراث ما هو إلا غيض من فيض ما جادت به قريحة الحضارة الإسلامية التي شهدتها القرون الوسطى على امتدادها، لكننا وعلى الرغم من قلة ما وصلنا من تراث أجدادنا عجزنا عن أداء واجبات حسن الضيافة لضيف قادم من ثنايا تاريخ مجيد سطرته العقول النيرة والأفكار المبدعة التي وجدت سبيل تحققها تحت لواء حضارة الإسلام التي رعاها العرب وحرصوا على إمداد مصباحها بزيت الفكر وفتيل العقول، وصار عجزنا عن الاهتمام بتراثنا سبباً آخر من أسباب ضياعه وتقهقرنا، وهذا ينطبق على العصور المتأخرة من زمان دولة بني عباس، وما تلاها كالعهد المملوكي والأيوبي، إذ تبدو الدراسات المهتمة بتلك العصور شحيحة بالقياس إلى ما سبقها من عصور، لذا كان هذا البحث محاولة لإنارة زاوية من تراثنا العربي للقراء.

صورة المرأة في ألف ليلة وليلة: يتبلور دور المرأة في عوالم ألف ليلة من خلال مشاركتها المحورية في بنائية الحدث والعقدة، وهنا ينبغي أن لا يغيب عن الأذهان، أن السبب الرئيس والمحرض الأول على هذه الحكايات (ألف ليلة وليلة) هو المرأة في الدرجة الأولى.

ولا يقتصر ذلك على (شهرزاد) فقط، وإن كانت من أبرز الشخصيات الفواعل في الليالي، ففي الحكاية المفتاحية، (ما قبل الليلة الأولى)، نلاحظ أن الحوادث تسير سيراً طبيعياً غير متأثر بمعوقات أو محفزات، حتى يأتي ذكر المرأة، فتكسب الأحداث توتراً يبعدها عن الرتابة ويكسوها تشويقاً، فخيانة زوجة شهريار كانت المحفز الأساس لاستيلاد الأحداث، تلك الخيانة أنتجت لدى شهريار فعلاً انتقامياً، حيث ابتدعت شهرزاد حديثها المباح ((فأصبح سامعه ومتلقيه تابعاً لها، فإذا به جرم صغير في فلكها السردي، إذ تمكنت شهرزاد من أن تخلق من شهريار متلقياً مشاركاً في نصّ الحكايات، وكأنه أصبح لزاماً عليه أن يساهم في إبداعها وإعادة خلقها من جديد))(٢)، إذ لم تكن المرأة في الليالي –كما يمكن للبعض أن يتصور– تشغل حيِّزَ الضعف والخوف من سلطان الرجال، بل على العكس تماماً، فقد تحدثت المرأة من منطلق القوة، فلم ترهب (شهرزاد) سيف الملك شهريار وبطشه، كما لم تخشَ صبية الجنيِّ في حكاية المفتتح (ما قبل الليلة الأولى) صولةَ الجنيِّ، وعلى الرغم من أنه اختطفها ليلة عرسها، ووضعها في علبة داخل صندوق، ورمى على الصندوق سبعة أقفال، وجعلها في قاع البحر فقد خانته خمس مئة وسبعين مرة على غفلة منه، وقد روت هذه الحكاية لشهريار وأخيه شاه زمان ((وأخرجت لهما من جيبها كيساً وأخرجت منه عقداً فيه خمسمائة وسبعون خاتماً، فقالت لهما: أتدريان ما هذه، فقالا: لا ندري، فقالت لهما : أصحاب هذه الخواتم كلهم كانوا يفعلون بي على غفلة من هذا العفريت))(٣)، فكانت هذه الحكاية سبباً في عودة شهريار إلى قصره وقتله زوجته، وصار كلما تزوج بنتاً بكراً يقتلها من ليلتها، لتدخل (شهرزاد) في معترك الأحداث، وتنفتح الليالي على آفاق جديدة._ونظراً لتعدد الحكايات واختلافها في الليالي فقد تنوعت وظائف المرأة وتعددت صفاتها، وأصبحت المرأة عنصراً مشاركاً في صنع الحدث الحكائي وتطويره، فتكون المرأة نداً للرجل، وقد تغلبه أحياناً وتتفوق عليه، كما هو الحال في حكايات دليلة المحتالة مع علي الزئبق المصري، وكما هو حال شهرزاد التي استطاعت في نهاية الليالي أن تصنع من شهريار إنساناً جديداً ومختلفاً عما هو عليه قبل حضور شهرزاد.

ويمكن لنا أن نعدد بعض صفات نساء الليالي ومنها:

أولاً– الخيانة:

لا يعني الابتداء بهذه الصفة أنها الغالبة أو الطاغية على المرأة في ألف ليلة، ولكنها كانت دائماً محرضاً على توالد المحكيات، واستمرار فعل القص مما يهب الحدث قوة على الجذب والتشويق، والنفاذ إلى دفقات حكائية أخرى، تفتح الباب واسعاً لتعدد الرواة والمرويات، فإصرار (شهرزاد) على أن تكون ((فداءً لبنات المدينة وسبباً لخلاصهن من بين يديه))(٤)، فتح المجال واسعاً لتنطلق شهرزاد في سرد حكاياتها، وهنا نطرح سؤالاً يلح، لماذا أصرت شهرزاد على تكرار حدث الخيانة والعقاب في حكاياتها؟!.

الإجابة على هذا السؤال الملحاح تحتاج إلى استقراء لنهايات بعض الحكايات المعنية ومنها:

أ– حكاية التاجر والعفريت: توالدت عنها ثلاث حكايات فرعية هي:

حكاية الشيخ والغزالة: وفيها مكر الزوجة بضرتها، لأنها أنجبت في حين بقيت هي من دون أولاد ولم تنجب، فعاقبتها الساحرة بأن جعلتها غزالة، لأنه مكرت بضرتها فحولتها بقرة. حكاية الشيخ والكلبتين: وفيها غدر الأخوين بأخيهما الذي أحسن إليهما، فعاقبتهما الجنية بأن حولتهما إلى كلبتين جزاء غدرهما بأخيهما الطيب. حكاية الشيخ والبغلة: وفيها يسافر الشيخ ويغيب عن زوجته سنة كاملة، ويعود فيراها تضاجع عبداً أسود، فتمسخه زوجته الخائنة، لكن الساحرة تفك عنه السحر وتحول زوجته إلى بغلة. في هذه الحكاية بتفرعاتها الحكائية، نستطيع أن نرسم وجوهاً أخرى للتماثل بين الحكاية الإطار (شهرزاد وشهريار) وبين حكاية (التاجر والعفريت) منها:

حكايات التاجر والعفريت

التاجر يتعرض لمحاولة القتل من دون ذنب يستحق القتل.

العفريت يمهل التاجر حتى يقضي دينه ويودع أهله.

الشيوخ يحكون حكاياتهم للعفريت مقابل أن يهبهم دم لتاجر ويعفو عنه.

العفريت يعفو عن التاجر بعد أن سمع حكايات الشيوخ.

حكاية الإطار

شهرزاد + باقي بنات المدينة يتعرض للموت على يد شهريار من دون ذنب اقترفنه يستحق.

٢–شهريار يسمح لشهرزاد بالحكي لقضاء الليلة.

٣- شهرزاد تستمر في سرد حكاياتها، وشهريار يبقي عليها حتى يسمع تتمة الحكاية.

٤- شهريار يعفو عن شهرزاد ويقلع عن عادة قتل النساء بعد انتهاء الليلة الأولى بعد الألف.من خلال ما سبق نستطيع تحديد أوجه التقابل بين عناصر الحكاية الإطار وبين عناصر حكاية التاجر والعفريت على النحو التالي:

التاجر= شهرزاد.

العفريت = شهريار.

ابن العفريت المقتول = شرف شهريار المهدور.

حكايا الشيوخ للعفريت = حكايا شهرزاد لشهريار.

كما نميز في هذه الحكاية مبدأين حاكمين تلحُّ الحكاية على إيصالهما، وهما:

١- **مبدأ القص مقابل الحياة**: فالشيوخ الثلاثة اشترطوا على العفريت أن يهب كل واحد منهم ثلث دم التاجر وجنايته قبل أن يقص عليه قصته، فيتخلى العفريت عن فكرة القتل مقابل الاستمتاع بحكاية عجيبة، وكأن شهرزاد أرادت أن تقول لشهريار: إن هناك في الحياة ما هو أجمل من الانتقام والقتل، إنه متعة الحياة ونشوتها.

٢- **مبدأ الخيانة المستفحلة**: فالخيانة لم تقتصر على المرأة في حكايات الشيوخ، ففي حكاية الشيخ الثاني والكلبتين، نجد في غدر الأخوة بأخيهم شيئاً من الخيانة، وعلى الرغم من تلك الخيانة فقد رفض الشيخ قتل أخوته، عندما عرضت عليه الجنية ذلك، فمسختهما كلبتين، ((فلما سمعت حكايتهما تعجبت وسألتهما على فعلها وقلت لها: أما هلاك أخوي فلا ينبغي. قالت أنا في هذه الليلة أطير إليهما وأغرق مركبهما وأهلكهما فقلت لها: بالله لا تفعلي بان صاحب المثل يقول: يا محسناً لمن أساء كفى المسيء فعله))(٥)، وهذه دعوة أخرى لشهريار للتخلي عن فكرة القتل انتقاماً.لقد كشفت ألف ليلة وليلة نوازع النفس البشرية عن طريق مزج الواقع بالرمز، فتضافرت الأحلام مع القدرات الحقيقية لتحقق وهم السعادة المطلقة التي كانت هدف معظم الليالي))(٦).

ب – حكاية الصياد والعفريت: توالدت عنها حكاية الملك (يونان) والحكيم (دوبان)، إذ يصاب الملك بالبرص، فيعجز عن شفائه الأطباء، لكن الحكيم (دوبان) يتمكن من شفاء الملك، فيكرمه الملك لكنه يقرر قتله بعد وشاية كاذبة من أحد الوزراء، وعندما يرى الحكيم أنه ميت لا محالة، يدبر حيلة ينتقم فيها من الملك، فيقتله، بالكتاب المسموم الذي أوصاه بفتحه بعد قتله مدعياً أنه حوى من العلوم ما لم يحوِه كتاب، وقد تضمنت حكاية الشاب الذي كان ابن ملك المدينة وقد تزوج ابنة عمه، فاكتشف أنها كانت تخونه مع عبد أسود، فنزل إلى العبد وضربه بالسيف، فظن أنه أجهز عليه لكن العبد لم يمت، فتحزن الزوجة الخائنة لما حلَّ بعشيقها العبد، وتنتقم من زوجها فتحوله إلى نصفٍ حجراً ونصفٍ بشراً، وتبدأ بتعذيبه، إلى أن يأتي الملك فيخلصه من سحرها، ويقتلها. بالنظر إلى هذه الحكاية نجد أنها تشترك مع حكاية (الشيخ والبغلة) و(حكاية الإطار)، بأن الزوجة تخون مع عبد أسود –وهذه النقطة شديدة المساس بشهريار– ثم تقوم بعمل سحر له فتمسخه، فيأتي من يخلصه من السحر. وما نريد النفاذ إليه أن (شهرزاد) وعلى الرغم من أنها جعلت نهاية الزوجة الخائنة هي الموت لكنها تحفظت على ذلك من خلال نقطتين هما:

١-لم تجعل هذا الموت عقاباً للخيانة: ولو أرادت ذلك لجعلت موت الزوجة –في حكاية الصياد والسمك الملون– على يد زوجها الشاب، الذي استل سيفه وضرب العبد أمامها، من دون أن يمسها بسوء، بل صبر عليها راجياً أن تؤوب إلى رشدها، وعاملها بعد ذلك وكأن شيئاً لم يكن.

٢-جعلت الحكاية موت الزوجة على يد الملك الذي جاء ليخلص الزوج من السحر الذي عملته الزوجة، لتقول: إن موت الزوجة سببه تعذيبها لزوجها انتقاماً منه لعشيقها العبد، وليس بسبب الخيانة. وهذا لا يعني أن شهرزاد كانت تدافع عن المرأة الخائنة، لكنها كانت تريد أن تستبعد فكرة القتل كحلٍّ لمشكلة الخيانة.

ج- حكاية التفاح:وفيها يجد الخليفة هارون الرشيد جثة فتاة مقتولة فيأمر وزيره جعفر البرمكي بمعرفة القاتل، فيأتي شاب ورجل عجوز، ليعترف كل منهما أنه القاتل، فالمقتولة هي ابنة العجوز وزوجة الشاب، يقتلها بعد أن يتوهم أنها خانته مع عبد أسود لكنه يكتشف أنها طاهرة عفيفة وأنه قتلها ظلماً فسلم نفسه لينال عقابه.فعل الخيانة هنا افتراض لا أساس له من الصحة، لكن العقاب (الموت) تم فعلاً، تأتي شهرزاد بهذه الحكاية لزعزعه الثقة لدى شهريار بصواب العقاب الذي أوقعه بالنسوة التي تزوجهن ويقتلهن انتقاما من زوجته الخائنة وكأنها تريد أن تقول: إن الإنسان لا يستحق العقاب على ما لم يفعل أو على ما فعله الآخرون من الخطأ ((وَلاَ تَزِرُ

وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى))([٧])، من خلال هذه النماذج البسيطة للخيانة الزوجية في عالم الليالي تخلص إلى حقيقة مفادها أن تكرار الخيانة الزوجية مع العبيد وغيرهم في حكاية شهرزاد، لم يأتي لينكأ جراح شهريار، إنما جاء هذا التكرار لمحاولته تقديم العزاء لهذا الرجل الكليم في شرفه إما عن طريق نفي وقوع الخيانة كما في حكاية التفاح، أو بتغير طريقة العقاب كما في حكاية (الشيخ والقبيلة)، أو عن طريق الإقرار بالعفو وتجاوز الخطيئة كما في حكاية (الصياد والسمك)، إذ تجاوز الشاب خيانة الزوجة ولم يعاقبها لخيانتها، فقتلها الملك لأنها سحرته وعذبته انتقاما لعشيقها العبد فتؤكد بذلك رفضها لمبدأ العقل كما ان تكون فعل الخيانة يجعل منه امرأ معتاداً، أو شبه معتاد، ويخفف من وطئته، ولا يحمله غير ما ينبغي، كما تحاول (شهرزاد) أن تشعره بأنه ليس الوحيد المخدوع والمغدور به من قبل زوجة شهوانية، فعندما يكثر أمثال الإنسان من المفجوعين بمثل فاجعته فا ذلك يخفف من هول المصيبة ويخلصه من شماتة الشامتين ألم تقل الخنساء :

ولولا كثرة الباكين حولي على إخوانهم لقتلت نفسي ؟

ألم يتساءل شهريار إذا كان الوحيد المخدوع آم له أمثال ((فلما رأى الملك شهريار ذلك الأمر طار عقله من رأسه وقال لأخيه شاه الزمان: قم بنا نسافر إلى حال سبيلنا وليس لنا حاجة بالملك حتى ننضر هل جرى لأحد مثلنا أو لا؟. فيكون موتنا خيراً من حياتنا))([٨])؟.

ثانياً: الاحتيال والشطارة :إذا كانت العودة إلى التاريخ الصحيح لتأليف (ألف ليلة وليلة) صعبة ولا نقول مستحيلة بسبب تضارب الآراء حول زمنية التأليف فان من اليسير على الناضر في الليالي ان يضع تصورا اقرب إلى الصواب حول زمن الحكاية، فلكل حكاية زمنها الخاص الذي يميزها عن الحكاية الأخرى وإن اشتركت بعض الحكايات بزمن واحد كما في حكايات الخليفة هارون الرشيد، وحكايات السندباد البحري وغيرها.والغاية من هذا التقديم هو القول بان بعض الحكايات وشت بانتمائها إلى العصر العباسي الثاني، أو إلى العصر الأيوبي و المملوكي حيث كثر في البلاد الشطار والعيارون، وانتشرت قصصهم، وصارت الشطارة مهنة تتخذ ويقدم أصحابها ومحترفيها في مجالس الأمراء والوزراء، وخير ما قدمته الليالي حول هذه الصفة لدى النساء هي حكايات دليلة المحتالة وعلى الزيبق المصري. فالدليلة ((صاحبه حيل وخداع ومناصف وكانت تتحايل على الثعبان حتى تطلعه من وكره أو كان ابليس يتعلم منها المكر))([٩]) تبدأ الدليلة بالتدبر والإعداد العمليات الاحتيال فتلبس ثيابا بالية وتحمل أعلاما وتتنكر بهيئة عجوز متصوفة وتوقع بأولى ضحاياها زوجته (حسن شر الطريق) رئيس الشرطة عند الخليفة، الذي سرى الشيب إلى وجهه ولم يرزق بولد فهجر زوجته، وتلجا الزوجة إلى الدليل المتنكر بزي الصوفية لتجد لها حلا وتصلح حالها بركتها، وتلبس مصاغها جميعه وافخر ثيابها وتتبع العجوز (الدليلة) متوجهة إلى الشيخ أبو الحملات وتأمرها أن تسير خلفها بعيدا عنها على قدر ما تنظرها بالعين، وفي الطريق تعرج الدليلة إلى دكان فيه شاب بهي الطلعة وهو ابن احد التجار فتوهمه أن الصبية التي معها ابنة أحد التجار مات أبوها وخلف لها مالاً كثيراً وهي تريد بعلاً، وإن كان فقيراً أغنته، فوافق لكنه اشترط عليها أن يرى الصبية عارية، فتقبل ذلك ويأخذ الشاب ألف دينار ويتبعها فتأمره أن يسير بعيدا عنها بحيث الكيد يراها. ولكي تؤمن الدليلة بيتا تعرض فيه الصبية على الشاب، فتعرج على مصبغة في السوق وتدعي أمام صاحبها بأن الشاب والصبية ولداها وأنها تريد أن تستأجر جزءاً من بيته تقيم به زمنا ريثما تنتهي من إصلاح بيتها الآيل للسقوط، فتأخذ المفتاح وتنطلق إلى البيت وهناك تستقبل الصبية قائلة: ((يا ابنتي هذا بيت أبو الحملات وأشارت إلى القاعة ولكن اطلعي الطبقة وحلي إزارك حتى أجيء إليك فدخلت الصبية إلى الطبقة وقعدت))([١٠])، ثم استقبلت ابن التاجر وقالت له: ((اقعد في القاعة حتى أجيء إليك بابنتي تنظرها))([١١])، وهي تقصد زوجة رئيس الشرطة (حسن شر الطريق) ثم تحتال على الصبية فتخلع ملابسها وحليها، وكذالك الشاب وتغفل عليهما الباب وتخرج وتعود إلى الصباغ، فتعطيه دينارا وتطلب منه أن يأخذ الغداء لوليديها في البيت، فيتركها في المصبغة، فتأخذ ما فيها، وتنادي حمالاً وتدعي أنها أم الصباغ، فتأخذ حماره لتحمل عليه الحوائج التي سرقتها وتطلب منه أن يدخل إلى المصبغة فيكسر الخوابي والدنان، وتعطيه دينارا لقاء ذلك وتعود إلى بيتها لتحكي لابنتها زينب ما فعلته إذ ((قالت لها أنا لعبت أربع مناصف على أربعة أشخاص، ابن التاجر، وامرأة شاويش، وصباغ، وحمال وجئت لك بجميع حوائجهم على حمار الحمال))([١٢])، ولم تكتف الدليلة بما فعلت ولم تتوقف عند هذه الخطوة، حيث تابعت ما بدأت وانطلقت من جديد تنصب أشراكها لتوقع بها الضحايا فخرجت بين الأزقة حتى وصلت إلى زقاق مفروش سمعت منه صوت نقر وغناء ورأت جارية تحمل ولداً بلباس الأكابر، فعرفت أنه ولد شاه بندر التجار وأنهم يحتفلون بخطبة ابنتهم وهم عن الولد في شغل فتحايلت على الجارية وأعطتها ديناراً لتدخل على سيدتها لتبلغها تحيتها فأخذت الولد وهربت ونزعت منه ثيابه

ومجوهراته وتوجهت به إلى صائغ يهودي فرهنته عنده مقابل حلي بألف دينار وكان هذا الصائغ يعرف أن هذا الولد ابن شاه بندر التجار فقبل منها الرهان وأعطاها المجوهرات وهربت بها. وعندما وجدها الحمار وطالبها بحماره توجهت به إلى المزين المغربي وأوهمته أنها تركت الحمار عند المزين، وعندما وصلت المزين قالت له: إن هذا الرجل ابنها وقد أصابه جنون فهو يظل يلهج بذكر حماره، فطلبت منه أن يتحايل عليه ويقلع ضرسيه ويكوي صدغه حتى يشفى من جنونه وأعطت المغربي ديناراً وغادرت، ففعل كما أشارت وذهب الحمار والمغربي يتخاصمان فلما عاد المغربي وجد الدليلة قد سرقت دكانه وانصرفت فعرف أنه قد وقع في شركها واجتمع الحمار والصباغ واليهودي وابن التاجر والمغربي وتوجهوا إلى الوالي يشكون ما حل بهم، فأرسل معهم عشرة من أتباعه ليقبضوا على الدليلة، وعندما قبضوا عليها راحوا بها إلى الوالي، ووقفوا تحت شباك القصر ينتظرون خروجه، فنام أتباع الوالي وتظاهرت الدليلة بالنوم، فنام الحمار وأصحابه، وانسلت الدليلة إلى حريم الوالي واحتالت على زوجة الوالي، فباعتها (الحمار والصباغ وابن التاجر والصانع المغربي) على أنهم مماليك لها اشتراهم الوالي منها، فأخذت من زوجة الوالي ألف دينار وخرجت إلى بيتها، وعندما علم (حسن شر الطريق) بما حصل لزوجته على يد الدليلة توجه إلى الوالي، وطلب منه التدخل، فأرسل الوالي معهم عشرة مقدمين (والمقدم هو الشاطر المحتال القادر على عمل ما يريد وكان يسمى مقدما لأنه يتقدم على حاشية الملك والأمير في مجلسه) فيقبضون على الدليلة ويتوجهون إلى بيت الوالي، الذي يأمر بصلبها من شعرها على شاطئ دجلة وعين عشرة من الناس لمراقبتها وفلما حل الظلام نام المراقبون فسمعت بدوياً يركب حصاناً ((وهو يقول لنفسه أكل الزلابية زين وذمة العرب وأنا لا آكل زلابية العسل))([١٣])، فأوهمته أن الوالي حكم عليها بأكل عشرة أرطال من الزلابية بالعسل، وهي لا تحب الحلو من الطعام، وإنها لا يأكلها إلا من عُلِّق مكانها ((فانطلت عليه الحيلة فحلها وربطته موضعها بعد ان خلعت الثياب التي كانت عليه ثم إنها لبست ثيابه وتعممت بعمامته وركبت حصانه وراحت لابنتها))([١٤])، وتصل أنباء الدليلة إلى الخليفة فيأمر المقدم (أحمد الدنف) بالقبض عليها ويكلف أحمد الدنف أربعين رجلا بالبحث عن الدليلة، فتوقع بهم ابنتها زينب التي تستأجر قاعة وتجعلها خمارة، وتدعي أنها غريبة من الموصل كان أبوها تاجراً، فيدخل رجال أحمد الدنف إلى الخمارة ويشربون فيسكرون وتبنجهم زينب وتفعل مع أحمد الدنف مثل ذلك، وتأخذ ثيابهم وتنصرف وحين يستيقظون يجدون أنهم وقعوا في شرك جديد، في حين كانوا يريدون أن يوقعوا بالدليلة، وتوقع زينب أيضاً بعلي الزئبق فتسلبه ثيابه وتتركه في البئر حتى يأتي من يخرجه بعد أن استعرضنا حكايات الدليلة والزئبق وما فيها من حيل المكر والخداع والدهاء التي اتصفت به الدليلة وابنتها زينب وكيف استطاعت التغلب على الكثير من رجال المدينة على اختلاف طبقاتهم وأحوالهم فمنهم (الحمال، وابن التاجر، والصباغ، والصائغ، وزوجة الوالي، ومقدمو الخليفة، والبدوي)، حتى على الزئبق المشهور بشطارته ودهائه لم يسلم من حيلهن وألاعيبهن فوقع كما وقع غيره، ويوضح المخطط التالي (مناصف) الدليلة وابنتها زينب:

١-الدليلة: ا- امرأة الشاويش ب- ابن التاجر ج-الصباغ د-الحماره-الصائغ و-الحمار (مرة أخرى)ز-المزين المغربي ح-زوجة الوالي ط-البدوي

٢-زينب احتالت على : أ- أحمد الدنف والأربعين رجلاً.ب- علي الزئبق المصري. والواضح من تلك المغامرات جميعها أن الفاعل (الدليلة وزينب) لم تهدف من خلال ما فعلته إلى جمع المال ولم يكن الطمع هو الدافع لهذه الأفعال إنما أرادت (المرأة) الدليلة وابنتها أن تثبت للرجال أن النساء قادرات إذا أردن أن يتغلبن على الرجال، وهذا ما كشفته الدليلة عندما مثلت بين يدي الخليفة ((فقالت أنا ما فعلت هذا بقصد الطمع بمتاع الناس ولكن سمعت بمناصفة أحمد الدنف التي لعبها في بغداد، ومناصف حسن شوفان وقلت أنا الأخرى أعمل مثلها، وقد ردت حوائجـ الناس إليهم))([١٥])، وهذا الأمر وجهه النضر النفسي بوضوحه التفسير التالي بهذا النقص :فالذين يشعرون بعقدة نقص، يحاولون التعويض عنها فيقومون بأشياء يعجز عنها الذين لا يشعرون بهذا النقص فشعور الدليلة بانتقاض المجتمع لقدرها ومن المفيد هنا أن نذكر أنَّ زوج الدليلة كان مقدما عند الخليفة وكان له في كل شهر ألف دينار، فقطع راتبه عن الدليلة بعد موته دفعها إلى القيام بكل ما فعلته من احتيال.ومن هنا نقول: إن الأسباب التي دفعت المرأة إلى الشطارة والاحتيال لم تكن مادية بقدر ما هي معنوية تتمثل في سعي المرأة لتأكيد ذاتها في مجتمع ذكوري لا يراها إلا جسداً يُشتهى، وأمة تؤدي لسيدها فروض الطاعة، وقد استطاعت الدليلة وابنتها زينب أن تثبتا أن المرأة نظيرة الرجل، بل قد تتغلب عليه إذا ما أرادت، وهذا يعيدنا مرة أخرى إلى مقولة فتاة الجني في حكاية المفتتح (ما قبل الليلة الأولى) ((ولم يعلم أن المرأة منا إذا أرادت أمرا لم يغلبها شيء))([١٧١٦]).

ثالثاً- الجمال:

الجمال صفة غالبة على النساء الليالي الصفة تكاد تكون وتحده في جميع النساء، وإذا صدف ووصفت شخصية من شخصيات الليالي بغير صفة الجمال، فإنها تدل على الخبث واللؤم والشيخوخة، وكان الجمال في ألف ليلة وليلة يعني النقاء والحب والحياة بكل معانيها.وقد عنيت الليالي أيما عناية بوصف الجمال المادي الجسدي لنساء الليالي أكثر من عنايتها بالإتقان إلى جمال الروح والغالب في وصف الجارية أن يقال ((صبية رشيقة القدر بارز النهد ذات حسن وجمال وعيون كعيون الغزلان وحواجب كهلال رمضان وخدود مثل شقائق النعمان وفم كخاتم سليمان ووجه كالبدر في الإشراق ونهدين كرمانتين))(١٨)، هذه الصفات المتكاملة شبه الأسطورية في نساء الليالي وهبتهن قدرة على الفاعلية في أحداثها فأصبحت المرأة منْشَدَة الرجل الأولى، تخوض من اجلها المغامرات، ويفني النفس والمال فداء لها، ويكون جمال المرأة وسيله لكسب ود العدو أو الضد إذا صح التعبير كما في حكاية (علي الزئبق) و(زينب) بنت الدليلة، إذ يعجب على الزئبق بجمال (زينب) التي تتحايل عليه فتحبسه في البئر، لكنه يصر على الزواج منها ويخوض من أجلها المغامرات حتى يتزوجها، وترد في ألف ليلة وليلة صفات كثيرة مشابهة لهذا الوصف الجمالي، فتوصف المرأة أيضاً بأنها ((ليس لها نظير في الحسن والجمال والبهاء والكمال والقدر والاعتدال هي فاقت أهل عصرها وأوانها وصارت أشهر من نار على علم في افتتانها، وزادت على الملا بالعلم والعمل والتثني والميل ومع كونها خماسية القد مقارنته للسعد، بجبينين كأنها هلال شعبان وحاجبين أزجين وعيون كعيون غزلان وأنف كحد الحسام، وخد كأنه شقائق النعمان وفم كخاتم سليمان وأسنان كأنها عقود الجمان وسرة تسع أوقية من دهن بان، وخصر انحل من جسم أضناه الهوى وأسقمه الكتمان، وردف أثقل من الكثبان.. تسلب من تراها بحسن جمالها وبريق ابتسامتها، وترميه من عيونها بنبل سهامها))(١٩).يأتي التركيز على الصفات الجسدية لنساء الليالي والإكثار منها تعبيراً عن الذوق الجمالي العام في نضرة المجتمع نحو المرأة فأول ما يميز المرأة في أترابها هو الجمال، ولا ننسى إن تلك العصور كانت عصور الرخاء والرفاهية في الدولة وقد كثر الجواري في القصور والبيوت وهذه هي القيمة الاجتماعية والتاريخية التي يمكن أن نستخلصها من تفاصيل الوصف الجمالي في ألف ليلة، وهذه الصفة تشكل عاملاً مهما في بروز صفه أخرى الصيغة بالجمال عند نساء الليالي هي الغواية.

رابعاً- الغواية :

تتمتع النساء في الليالي كما عرضنا قبل قليل –بصفات جمالية تذهب باللب، وقد مكنتها هذا الصفات من إغواء الكثير من الشخصيات في ألف ليلة على الرغم من اختلاف هذه الشخصيات، وهذه الغواية في الليالي نوعان: الأول غير مقصود ويكون من قبيل المصادفة فقد تلتقي المرأة ذات الجمال الفاتن في ألف ليلة برجل وتوقعه في شرك محاسنها، فتكون الحكاية قد وهبت المرأة قدرات جمالية تتجاوز تمكنها من الإيقاع بالرجل تحت تأثير الإغواء من دون أن يكون للمرأة أي رغبة في استدراج الرجل أو إغوائه كما في حكاية قمر الزمان والملكة بدور بنت الملك الغيور، حيث يتدخل الجن في تهيئة الأجواء المناسبة ليقع قمر الزمان تحت تأثير الملكة بدور ((ثم قام من وقته قاعداً ونظر إلى ذلك الشخص الراقد بجانبه، فوجد صبية كالدرة السنية أو القبة المبنية بقامة ألفية حماسية القد بارزة النهد موردة الخد.. ثم إنه حين شاهد حسنها تحركت فيه الحرارة الغريزية))(٢٠).أما النوع الثاني للغواية عند نساء الليالي فهو الإغواء المقصود الذي تتعمد فيه المرأة أن تلفت أنظار الرجال إلى حسنها فترمي بهم في شركها متوسلة بما منحتها الليالي من دفق جمالي آسر، وقدرة لا متناهية على سلب الألباب والإيقاع بالرجال، ففي حكاية قمر الزمان وحياة النفوس التي تتفرغ عنها حكايات ولديهما الأمجد والأسعد، حيث يقع الأمجد في غواية إحدى النساء ((فصادف في طريقة امرأة ذات حسن وجمال وقد واعتدال ليس لها في الحسن مثال فلما رأته رفعت القناع عن وجهها وغمزت بعيونها وحواجبها، وغازلته بلحظات وقد لعبت به أيدي الصبايا ففهم الأمجد إشارتها....وعرف إنها تريد الذهاب معه أينما يريد أن يذهب))(٢١)، وفي الليالي أمثلة أخرى كثيرة تكون فيها المرأة هي طرفاً فاعلاً في علاقتها مع الرجل، فقد استطاعت (أنيس الجليس) بما ملكته من الحسن والجمال تكسب محبة علي نور الدين ابن الوزير، وأن تغوي (الشيخ إبراهيم) حارس بستان الخليفة فقبل إيوائها وزوجها علي نور الدين وشرب الخمرة على يدها بعد توبته عنها ثلاث عشرة سنة وأعجب الخليفة الرشيد بحسنها ودلالها فصار يخدمها ويطهو لها الطعام مقابل الاستماع لغنائها ((ثم إن الجارية ملأت قدحاً ونظرت إلى الشيخ إبراهيم وقالت له: بحياتي أن تأخذه وتشربه ولا ترده فاقبله واجبر خاطري، فمد الشيخ إبراهيم يده وأخذ القدح وشربه.. وإذا

بنور الدين هم قاعداً.. فقال له: يا شيخ إبراهيم أي شيء هذا أما حلفت عليك من ساعة فأبيت.. فقال الشيخ إبراهيم، وقد استحى منه: والله ما لي ذنب إنما هي شددت علي.. فقالت الجارية والله يا سيدي إن هذا السمك مليح يا ليته مقلي.. فقال الخليفة وتربة آبائي وأجدادي ما يقليه إلا أنا بيدي.. وما كان مراد الخليفة بذلك إلا سماع الجارية وهي تغني))(٢٢) فقد استطاعت (أنيس الجليس) بجمالها وفتنتها وقدرتها على الغواية أن تحقق غايات أرادتها ما كانت لتصل إليها لولا هذه الصفة المتأصلة في نساء الليالي، لكننا نسجل لأنيس الجليس أنها لم تكن كغيرها من نساء الليالي اللواتي اتخذن الغواية سبيلاً للحيلة والمكر أو لإرضاء شهوة عابرة، فقد ظلت وفيةً في حبها لحبيبها علي نور الدين وكانت سبباً في نجاته من الموت((فمكيدة المرأة الشهوانية وتوسل الأخرى بالجنس للوصول إلى مآرب شخصية منتشرة في الليالي وتقدم عقدة من نوع آخر في الحكايات))(٢٣). تكثر في الليالي مثل هذه المواقف التي يميزها أنها تعبر عن قدرة المرأة على التصريح برغبتها والبحث عن الرجل الذي تشتهيه من دون خوف، ويصف بعض النقاد حكايات ألف ليلة وليلة بالإسراف في الحديث ((الموغل في الفواحش والفسق والأوصاف الجسدية المليئة بالإيحاءات، خصوصاً ما ذهبت إليه الناقدة ألفة الادلبي في حين أن من الممكن الاستغناء عن جميع هذه المبالغات الواصفة))(٢٤). ربما يتفق البعض مع رأي الناقدة في أن هذا الوصف موغل بما لا يتناسب مع الثقافة العربية القارئة لهذه الحكايات. فتندرج هذه الصفة في الليالي ضمن مقومات الأدب الجنسي، الذي كان علامة بارزه في التراث العربي وفي ألف ليلة على وجه الخصوص ولم يكن ورود مثل هذه الإشارات والمواقف الجنسية امرأ مستنكرا أو مستهجناً لدى المتلقي في ذلك العصر، وإذا عدنا قليلا إلى شعر الخلعاء من شعراء العرب فإننا نجد ذلك الشعر حافلاً بالإشارات الجنسية وهذا أيضاً حال التراث العربي القديم حيث احتوت كتب التراث كالعمدة والأغاني الكثير من الأخبار والمواقف والوصف الجنسي.

خامساً- الحكمة :

عندما نتحدث عن الحكمة في ألف ليلة فإننا مجبرون إذا أردنا أن نكون عادلين على اعتبار (شهريار) تسبح وحدها في هذا المجال وتتجلى حكمتها في كونها استطاعت بحكاياتها أن تميت في شهريار شهوة الموت، وتحي فيها إرادة الحياة فشذبت روحه، وهذبت نفسه، وأخذت بيده من عمايات هواجسه الانتقامية إلى مسحة الحياة الحقة، فتتخذ من قدرتها على الحكي سلطة تقهر أي سلطان وهي تعلم منذ البداية إنها لا محالة منتصرة ((إذا توجهت عند الملك أرسلت بطلبك فإذا جئت قولي: يا أختي حدثيني حديثاً نقطع به الليل، وأنا أحدثك حديثا يكون فيه إن شاء الله الخلاص))(٢٥). ذلك ما أثبتته نهاية الليالي، فعندما فرغت شهرزاد من الليلة الواحدة بعد الألف، تقدمت من شهريار ونادت بجلب أبنائها الثلاثة الذين أنجبتهم شهريار، طلبت منه العفو لأجلهم، فاخبرها شهريار أنه عفا عنها قبل أن تنجب هؤلاء الأولاد لعفتها وطهارتها، وهكذا قدمت (شهرزاد) مثالاً طيباً للمرأة الحكيمة، التي أطفأت سعير الشر وانبتت غراس الحياة في النفس الشهريارية القاحلة، فوظفت قدرها على توليد الحكايات في خدمة هدفها الذي رسمته في بداية مشوارها الطويل الوعر الممشى، فوصلت في النهاية إلى مبتغاها بالحكمة والعقل والحكايات المشوقة والهادفة والمكسوة بطابع الشغف.لقد كان باستطاعة (شهرزاد) أن تغافل شهريار فتدس له السم في الشراب، وكان باستطاعتها أن تطعنه فتقضي عليه، ولكنها بحكمتها وبطبيعتها الأنثوية، التي ترفض كل حل يقوم على القتل، لجأت إلى سلاحها الخاص، إلى ذخيرتها الواسعة من أخبار وحكايات وطرائف وعجائب، استطاعت من خلالها أن تعيد صياغة الأسس التي أقام عليها شهريار حياته، فكانت بحق حكيمة يندر مثيلها.

سادساً- الذكاء البداهة:

إلى جانب صفات الجمال والحكمة والغواية والاحتيال، وغيرها مما عرضنا له من الصفات امتازت بعض نساء الليالي بالذكاء الخارق والبداهة الحاضرة، والأجوبة المعجبة وكثير من المواقف التي تنال بها الجارية إعجاب الملك لجواب لماح وبديهة حاضرة ولسان فصيح وعقل راجح ومن ذلك حكاية (كسرى أنوشروان) مع الفتاة، إذ خرج للصيد فعطش عطشاً شديداً، فتوجه إلى بيت يطلب الماء، فخرجت إليه صبية، وعصرت له مع الماء عوداً من قصب السكر، ووضعت عليه شيء من الطيب يشبه التراب، فجعل كسرى يشرب قليلا قليلاً حتى أتى على آخره، وعندما سألها عن ذلك القذى في الماء أجابته ((لأني رايتك شديد العطش فخفت أن تشرب نهلة واحدة فيضرك))(٢٦) فسألها عن سبب الحلاوة في الماء فأخبرته إنها عصرت عليه عوداً واحداً من قصب السكر فأضمر (كسرى) في نفسه انه إذا عاد إلى عرشه سيزيد من الخراج المضروب على هذه القرية، وانصرف، وفي آخر النهار، عاد إلى البيت يطلب ماء فتأخرت الصبية في جلب طلبه، فلما عادت سألها عن سبب تأخرها فقالت: إنها اضطرت لعصر ثلاثة أعواد يخرج منها ما خرج من عود واحد فلما سألها عن سبب ذلك قالت: ((سببه أن نية السلطان تغيرت))(٢٧)، ولم تكن تعرف أنه السلطان فضحك كسرى وتراجع عما عزم

عليه من زيادة الخراج وتزوج بتلك الصبية.هذا نموذج بسيط من بين عشرات النماذج اكتظت بها الليالي، فعرضت صورة طيبة لملامح الذكاء والفطنة لدى النساء، ويأتي التميز بين (الاحتيال والشطارة والحكمة والذكاء) من كون كل واحدة منها تتخذ شكلاً مختلفاً وهدفاً مغايراً عن الأخرى، فالحكمة قارة في النفس وأكثر علوقا بها، لأنها تصدر عن موقف ثابت وفكر عميق وروية في تناول أمور الحياة، أما الذكاء والبداهة فهما ومضات تغيب وتظهر، أما الشطارة والاحتيال فإنها تختلف عن الحكمة والذكاء في الهدف والوسيلة في آن معاً.

سابعاً- العلم:

وردت في ألف ليلة وليلة شخصيات نسائية كثيرة امتازت بسعة المعارف والتبحر في العلوم ووصفت بعض الجواري بصفات تتجاوز المعقول وتجعل من أصحابها أقرب إلى شخصيات الأساطير حيث تجمع الجارية أطراف العلم وتبز المختصين والعلماء في مجالاتهم المختلفة ومن الأمثلة الدالة على ذلك حكاية الجارية (تودد) التي جمعت علوم الأولين والآخرين وناظر الخليفة بينها وبين كبار علماء الدولة وعلى رأسهم(إبراهيم بن سيار النظام) فتغلبت على جميع من ناظرها من القراء والعلماء والأطباء والمنجمين والحكماء والمهندسين والفلاسفة فكانت تجيب على كل ما يسألونها وحين تنتهي تسأل كل واحد سؤالاً فإن لم يعرف جوابه أخذت ملابسه وانصرف ، وأول من تقدم لمناظرتها الفقيه فسألها عن أمور الدين والفرائض كالصلاة وسننها وفروضها ، والوضوء والطهارة والغسل والزكاة في ماذا تجب ؟، والصوم ومفسداته، والاعتكاف وشروطه وسنن الحج ومناسكه، ومعاني أسماء الفروض في اللغة (كالوضوء والصلاة والغسل والزكاة والجهاد) فوجدها عالمة بكل ما سألها ولو زاد على ذلك لزادت، وعندما سألته عن فروع الإسلام لم يجب، فاشترطت عليه أن ينزع ثيابه حتى تفسر له الجواب ، ففسرته ونزع ثيابه وخرج مقهوراً خجلاً.تقدم فقيه آخر سألها مسال كثيرة عن سنن الطعام، وعقائد القلب والإيمان، والقلوب ، فأجابته على ذلك كله وقالت: ((فأخبرني عن فرض الفرض، وعن فرض في ابتداء كل فرض، وعن فرض يحتاج إليه كل فرض، وعن فرض يستغرق كل فرض، وعن سنة داخلة في الفرض، وعن سنة يتم بها الفرض، فسكت ولم يجب بشيء، فأمرها أمير المؤمنين بأن تفسرها، وأمره بأن ينزع ثيابه ويعطيها إياها، فعند ذلك قلت : يا فقيه، أما فرض الفرض فمعرفة الله تعالى، وأما الفرض الذي في ابتداء كل فرض فهو شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله، وأما الفرض الذي يحتاج إليه كل فرض فهو الوضوء، وأما الفرض المستغرق كل فرض فهو الغسل من الجنابة، وأما السنة الداخلة في الفرض فهي تخليل الأصابع وتخليل اللحية الكثيفة، وأما السنة التي يتم بها الفرض فهي الاختتام))(٢٨)، واعترف الفقيه الثاني بعلمها وانصرف مقهوراً. تقدم المقرئ العالم بالقراءات والنحو واللغة فسألها عن عدد سور القرآن وأجزائه، ومدنيه ومكيه، وسجداته وحروفه، وأسماء النبيين، والطيور فيه وغيرها فأجابت عن كل ما سأل، ثم سألته: ((ما تقول في آيةً فيها ثلاثة وعشرون كافاً وآيةً فيها ستة عشرة ميماً، ولآيةً فيها مائة وأربعون عيناً، وحزب ليس فيه جلالة ؟ فعجز المقرئ عن الجواب، فقالت: انزع ثيابك، ثم قالت : يا أمير المؤمنين إن الآية التي فيها ستة عشرة ميماً في سورة هود، أما الآية التي فيها ثلاثة وعشرون كافاً في سورة البقرة وهي آية الدين، وإن الآية التي فيها مائة وأربعون عيناً في سورة الأعراب، وان الحزب الذي ليس فيه جلالة هو سورة اقتربت الساعة وانشق القمر والرحمن والواقعة .فعند ذلك نزع المقرئ ثيابه التي عليه وانصرف خجلاً))(٢٩). تقدم الطبيب فسألها عن الإنسان وخلقه، وكم في جسده من عرق، وكم من عظم، وكم من فقارة، وأين أول العروق، ولم سمي آدم ؟، فأجابته عن ذلك وزادت، وسألها عن العلامات الظاهرة والباطنة التي يستدل بها عن المرض، وأقسام الطب والطعام الذي لا يسبب الأمراض والخمر والحجامة وغير ذلك، فأجابته عن كل ما سأل، وسكت وعيي، فسألته سؤالاً واحداً وعندما عجز عن الإجابة نزع ثيابه وانصرف، ثم تقدم المنجم فسألها عن مواقيت الشمس في طلوعها وغروبها وعن الليل والنهار، ومنازل القمر، وطبائع الكواكب ومكانها، فأجابته عن أسئلته ونزع ثيابه وخرج، ثم تقدم الفيلسوف فسألها عن الدهر وما جاء فيه، وغير ذلك فأجابته ونزع ثيابه وخرج هارباً .ثم تقدم النظام فسألها حتى عيي، فأجابت عما سأل ثم نزع ثيابه وخرج، وجاءوها بالحاذق في لعبة الشطرنج فتغلبت عليه ثلاث مرات، ثم جيء بلاعب النرد فغلبته، ثم انعم عليها الخليفة بمئة ألف دينار وردها إلى سيدها. هذا النموذج الذي قدمته الليالي عن علم المرأة وسعة معارفها يرد غير مرة ويتكرر في حكايات ألف ليلة ولم يقتصر الأمر على حكاية الجارية تودد التي عرضنا لها قبل قليل، حيث تقدم لنا حكاية (الملك عمر النعمان) مثالين طيبين لنموذج المرأة العالمة في الليالي هما (نزهة الزمان) و(الجواري الخمسة)، فنزهة الزمان تمتعت بسعة المعرفة وكثرت ما تحمله من العلوم، فهي تعرف الحكمة والطب ((شرح أصول أبقراط وجالينوس الحكيم. .وقرأت التذكرة، وشرحت البرهان وطالعت مفردات ابن البيطار وتكلمت عن القانون لأبن سينا، وحللت الرموز ووضعت الأشكال وتحدثت في الهندسة وأتقنت حكمة الأبدان، وقرأت كتب الشافعية وقرأت الحديث والنحو.. وتكلمت في سائر العلوم،

وألفت في علم المنطق والكلام والحساب والجدل، وعرفت الروحاني والميقات، وفهمت هذه العلوم كلها))(٣٠)، هذا ما كان من أمر نزهة الزمان وما احتوته من سائر العلوم والمعارف، فكان علمها سبباً في علو منزلتها لدى الأمراء والملوك، فأعجب بها الملك(شركان)، ودفع ثمنها ثلاثمئة وعشرين ألف دينار وتزوجها، بعد أن اختبرها وأسمعته بعض ما تحفظ من العلم والأدب .أما المثال الثاني الذي قدمته حكاية (الملك عمر النعمان) عن المرأة العالمة فهو ما كان من أمر الجواري الخمسة اللواتي وفدن على الملك عمر النعمان برفقة عجوز عليها أثر الزهد والتقشف، فأقبلت العجوز على الملك وقالت له: ((اعلم أيها الملك أن معي خمس جواري ما ملك احد من الملوك مثلهن، لأنهن ذوات عقل وجمال وحسن وكمال يقرأن القرآن بالروايات ويعرفن العلوم أخبار الأمم السالفة))(٣١)، فتتقدم كل جاريةً منهن، وتسمع الملك شيء مما تعلمه من الأدب والعلم والسياسة والأخبار، فيعجب الملك بعلمهن ومعرفتهن ويكرمهن غاية الإكرام .هذا غيض من فيض ما احتوته حكايات الليالي من أخبار ومواقف، تبرز فيها شخصية المرأة العالمة التي تتجاوز بعلمها علم الرجل وتبز العلماء. وإذا نظرنا إلى ما تقدم من صفات المرأة في ألف ليلة وليلة، فإننا نلاحظ فيما نلاحظه فاعلية المرأة، وتنامي دورها، وبروز الجوانب القوية في شخصيتها، فهي خائنة لأنها قوية وقادرة على الخيانة، وهي محتالة لأنها امتلكت ما يؤهلها لذلك، وهي بجمالها تملك قوة الفتنة وتوقع بغوايتها كبار رجالات الدولة ممن يعرفون بالشدة والحزم فوقع في شركها، وهي بحكمتها تروض الجامح وتنبت الورد في السيوف، وهي بعلمها تناظر العلماء فتغلبهم، فلا يستطيعون إلى مجاراتها سبيلاً. هذه هي شخصية امرأة الليالي التي أصرت شهرزاد على تقديمها من خلال بنية حكائية مذهلة، نفذت من خلالها إلى مكنونات النفس، معالجةً قروحها ومداويةً كلمها، آخذةً بيد متلقي حكاياتها إلى عوالم فسيحة من الدهشة والغرابة والعجائبية .

الخاتمة:

كانت الليالي قد قدمت في ثناياها العديد من المغامرات العجيبة والصعبة في الآن نفسه، ومع ذلك فإن البحث في دنيا ألف ليلة هو مغامرة أخرى لا تقل صعوبة وخطورة عن المغامرات الخيالية في الليالي، لما امتازت به ألف ليلة من اتساع المتن السردي وغزارة المحتوى الحكائي وتعدد الحكايات وتنوعها، وغير ذلك من المزايا التي لا مجال لذكرها، وما يهمنا الآن هو ما استطعنا الوصول إليه بعد هذه الرحلة القصيرة في عالم الليالي، فتعرفنا إلى المرأة في الليالي، والأدوار التي أدتها، والصفات التي ميزتها من غيرها من الشخصيات داخل الحكايات وخارجها، فقد امتازت بالعلم والحكمة والذكاء والحيلة والغواية وهذه صفات تدل على القوة والقدرة على الفاعلية في مجتمع الليالي، فقد أبت المرأة أن تكون تابعاً للرجل في كل شيء، ورسمت الليالي صورة أخرى للمرأة من الممكن ربطها بصورة المرأة في العصور الوسطى، حتى الخيانة عندما وردت في الليالي لم تكن نتيجةً لضعف المرأة أمام شهواتها، لكنها في الغالب كانت تعبيراً عن تمرد ضد الرجل السيد أو المتسيِّد، ومحاولة للتغلب عليه في أكثر القضايا حساسية وإحراجاً للرجل، ألا وهي قضية الشرف المهدور، فكسرت بذلك امرأة الليالي الصورة السلبية المرسومة للمرأة وقدمت بدلاً منها صورة حيوية مفعمة بالقوة والقدرة لدى نساء الليالي.

المصادر والمراجع

١. القرآن الكريم، سورة الأنعام.
٢. ألف ليلة وليلة، الد[٣٢]ار النموذجية، بيروت، ٢٠٠٣، الجزء الأول.
٣. التوحيدي، أبو حيان، الإمتاع والمؤانسة، صححه وضبطه وشرح غريبه، أحمد أمين وأحمد الزين، دار مكتبة الحياة، بيروت–لبنان، د.ت، الجزء الثاني.
٤. شاهين، محمد، آفاق الرواية (البنية والمؤثرات)، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق–سوريا، ٢٠٠١.
٥. كعبي، ضياء، السرد العربي القديم، مؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ٢٠٠٥.
٦. المخلف، حسن علي، التراث والسرد، وزارة الثقافة والفنون والتراث، قطر، الطبعة الأولى، ٢٠١٠.

الهوامش

[١] – التوحيدي، أبو حيان، الإمتاع والمؤانسة، صححه وضبطه وشرح غريبه، أحمد أمين وأحمد الزين، دار مكتبة الحياة، بيروت–لبنان، د.ت، الجزء الثاني، صـــــ١٣٢.

[٢] – شاهين، محمد، آفاق الرواية (البنية والمؤثرات)، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق-سوريا، ٢٠٠١، صـــ٤٠.

[٣] – ألف ليلة وليلة، الدار النموذجية، بيروت، ٢٠٠٣، الجزء الأول، صـــ١١.

[٤] – ألف ليلة وليلة، ج١، صـــ١١.

[٥]– ألف ليلة وليلة ج١، صـــ ١٥.

[٦] – المخلف، حسن علي، التراث والسرد، وزارة الثقافة والفنون والتراث، قطر، الطبعة الأولى، ٢٠١٠، صـــ ٣٠٠.

[٧] – القرآن الكريم، سورة الأنعام، آية ١٦٤.

[٨] – ألف ليلة، ج١، صـــ١٠ .

[٩]– ألف ليلة وليلة ج٤، ص ٨١ .

[١٠] – ألف ليلة وليلة ج٤، صـــ٨٦.

[١١]– ألف ليلة وليلة، ج٤، صـــ٨٦.

[١٢]– ألف ليلة وليلة، ج٤، صـــ٨٧.

[١٣]– ألف ليلة وليلة، ج٤، صـــ٩٥.

[١٤]– ألف ليلة وليلة، ج٤، صـــ٩٥.

[١٥]– ألف ليلة وليلة، ج٤، صـــ١٠٠.

[١٦]– ألف ليلة وليلة، ج١، صـــ١١.

[١٧] – ألف ليلة وليلة، ج١، صـــ١١.

[١٨] – ألف ليلة وليلة، ج١، صـــ٣٤.

[١٩] – ألف ليلة وليلة، ج٣، صـــ١٦٢-١٦٣.

[٢٠] – ألف ليلة وليلة، ج٢، صـــ١٦٨.

[٢١]– ألف ليلة وليلة، ج٢، صـــ٢٢٢،٢٢٣.

[٢٢] – ألف ليلة وليلة، ج٢، صـــ١٤٥-١٤٩-١٥٠.

[٢٣] – التراث والسرد، صـــــ٣٠٥.

[٢٤] كعبي، ضياء ، السرد العربي القديم، مؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ٢٠٠٥. ص ٤٩٦.

[٢٥] – ألف ليلة وليلة، ج١،صـــ١١.

[٢٦] – ألف ليلة وليلة، ج٣،صـــ١١١.

[٢٧]– ألف ليلة وليلة، ج٣، صـــ١١١.

[٢٨] – ألف ليلة وليلة، ج٣، صـــ١٧١.

[٢٩] – ألف ليلة وليلة، ج٣، صـــ١٧٥.

[٣٠] – ألف ليلة وليلة، ج١، صـــ٢١٢.

[٣١] – ألف ليلة وليلة، ج١،صـــ٢٣٧-٢٣٨.